إلى أخى الطنطاوى

ولكنها دمشق!...

للأستاذ شكرى فيصل

[سيلمح القراء فى هذه الكلمة بعض النواحى الشخصية .. ولكنهم سيجدون صورة من صور الصراع النبيل القوى فى الحياة ... وليس أحق من الدكتور « زكى مبارك » : شيخ المصاولات والمطاولات فى عالم الأدب، بهذه القطعة ... فليتقبلها فى متكئه المادى ... على طرف الصحراء]
« شكرى »

أخى الأستاذ على:

الآن أرسلتُ يدى بعد أن مسحت بهما دمعتين اثنتين غشيتا عينى وانحدرتا على خدى كقطرات الندى الناعم حين يترقرق على أوراق الزهر الرفاف فى ربيع الغوطة الفاتن... ولقد أخذت القلم لأكتب لك، وأنا لا أدرى أى شىء كانت هاتان الدمعتان... أكانتا تطفئان نار الوله والحنين، أم ترثيان لوضع البلد المسكين، أم تترجمان عن فرحة القلب بالأمل المؤيد والنصر المبين؟ وهل كنت أملك إلا هاتين الدمعتين، وإلا هذا القلم أفزع إليه كلما عبث بى الشوق، أو ماجت بى الذكرى، أو استثارنى الحب

لقد قرأت زفرتك هذه التى سطرتها بدم قلبك الفائر، وعزم شبابك المضطرم؛ فبعثت فى نفسى عالماً كبيراً ... بكل ذكرياته وأحاديثه... ما كان أشد حرصى على أن أدفنه وأنطوى عليه؛ وأثارت فى ذهنى صور الماضى البعيد بكل ما كان يصطرع فيه من آمال، ويفيض فيه من خواطر . . . ونعمت حيناً بهذا الجو العبق الذى فنيت به، وعشت معك من جديد ساعات تقلبت فيها مع الزمن الدائر، وجريت مع الأيام المتعاقبة، وقرأت هذه الصفحات المشرقة التى خططتها بيديك فى كتاب الحياة، وعاودت قراءتها وانغمست فى نعيمها حيناً وفى شقائها أحياناً ... ومضيت مع فرحتها مرة، ومع شكاتها مرات، وخرجت وفى قلبى يقين، وعلى شفتى ابتسامة، وفى عينى بريق من الأمل الضاحك

لقد عرفتنى ناشئاً حين كنت أسير مع أخيك بين المدرسة والبيت ... صغيرين وادعين ... لا نعرف آلام الحياة، ولا نفقه مصاعب الدنيا، ولا ندرك من هذا العالم إلا جنة المدرسة ونعيم التلمذة وصفاء القلب ... فكنت تلقانا بالرعاية، وتصلنا بالعطف،

أولاً: معرفة العلل المختلفة للمجتمع المصرى والوقوف على موطن الضعف فى القانون الوضعى وكيف حاول المقنن المصرى وضع العلاج فلم يفلح فنستطيع أن نضع يد الأمة على مصدر دائها ومعين دوائها ونصف لها من التشريع الإسلامى علاجها على ضوء الظروف والبيئة المحيطة بها

ثانياً: نستطيع أن نحسن صوغ التشريع الإسلامى وتنسيقه، فمن المسلم به أن جمال الصيغة وحسن الترتيب لهما دخل كبير فى إقبال الأمة على أحكام الشريعة وتعرف نواحى الفضل فيها. ولو أن سلفنا القريب قدم ما فى هذا من خير وصاغ تلك الأحكام فى الثوب الذى يلفت الأنظار إليها، ويتمشى مع طرق العرض الحديث لما وصلنا إلى هذا المصير المؤلم

ثالثاً: بتحقيق هذه الرغبة تستطيع كلية الشريعة أن تثبت أهليتها للنهوض بأعباء الحياة التشريعية وأن تشعر الأمة بحاجتها إليها وعدم الاستغناء عنها

مما تقدم يتبين أن تحقيق هذين المطلبين يمكن كلية الشريعة من الاضطلاع برسالتها التى فرضها الله عليها فتشتق من عناصر الفناء التى تحيط بها خلوداً وتتخذ من خصومها جنوداً وتشق طريقها فى الحياة وهى أقوى يقيناً وأصلب عوداً

لهذا رفعنا رسالتنا إلى ساحتكم وكلنا أمل فى أنها ستجد العناية من فضيلتكم وستظفر بالرضا من جانبكم، لأنها ثمرة من ثمرات غرسكم وبريق من نور قلبكم. أبقاكم الله للاسلام ذخراً وللأزهر فخراً.

* * *

(الرسالة): علمنا أن الأستاذ الأكبر قد وعد بتحقيق المطلب الأول. أما المطلب الثانى فوعد فضيلته بمفاوضة ولاة الأمور فى فتح أبواب كلية الحقوق أمام من يجيد الفرنسية من حملة الشهادة العالية من كلية الشريعة

وتفيض علينا ألواناً من الحنان ... فعرفتُ فيك الأخ البر، وقد حرمتْني الحياة من نعيم الأخوة ... وأفضيت إليك ذات يوم بكل ما في نفسي ... بكل ما يموج فيها وما يضطرب عليها . فكنتَ بعدُ كثير السؤال عني إن غبت ، كثير العناية بي إن حضرت، واقترنت صورة أخيك في ذهنك إلى صورتي فجعلت منهما إنساناً واحداً تضمر له أنبل الشعور وأصدق العاطفة ... ثم كانت إرادة الله فانصرفت أنت إلى بغداد ، ومضى هو إلى باريس ، وسمعت أنا إلى القاهرة . وبقي « ناجي » وحده في دمشق يرعى فيها عهود الصبا ومراتع الأنس ، ويمدنا منها بالروح والريحان

وفي خلال هذه السنوات كنت أتعرف إلى نفسك الكبيرة وكان يتفتح لي منها آفاق وعوالم ، ولقد أكبرت فيك هذا الجلد وهذا الصبر... فما بالك تشكو اليوم، وتنفث هذه الشكاة على حين احتملت من قبلُ الأهوال والمشقات ، ضاحك السن ، منطلق الوجه ، لا تأبه ولا تهتم ؟ ولكن سامح الله قاسيون ، وهذه السهول المنطلقة عند قدميه يدغدغها النسيم فقد شجتك واستثارتك ...

* * *

... وهل كانت الأولى هذه العناية عن الأدب ، وهذا الإهمال للعلم ، وتلك الرعاية للجهلاء ؟ وهل كنت تأمل من هؤلاء الذين عاشوا في الظلام أن يدركوا النور ، وأن يفتحوا عيونهم له ، وأن يغفلوا عن الوحي « الأرضي » الذي يسيرهم في كل ناحية ، ويمضي بهم في كل اتجاه ؟ وماذا كان حديثك لنا حين كنت تبعث فينا حمية الأدب ، وعقيدة العلم ، إلا أننا سنصادف غداً في معترك الحياة هذا الإنكار وهذا الجحود . وأنه يجب علينا أن نصبر عليه ونصمد له ونمضي في مقاومته ، وأننا سنحمل في أيدينا مشاعل الدعوة الكبرى التي تريدنا دمشق أن ننهض بها، وستصيب النار المقدسة من أجسامنا فتكوي أكفنا وتنثر الشر على أجسادنا وتنالنا بما تنال به جنودها المخلصين من الامتحان والابتلاء ... فلا يجب علينا أن نتخلى عنها ، لأنها دعوة الحق والصدق والخير تريد أن تنبعث من جديد في دمشق لتعم الدنيا ، وتبهر العالم

إن دنيا الأديب لن تخلو من أنماط من الجحود ... هكذا قلت لنا ... وإن رسالته لتصادف ألواناً من الصعوبات ، وأصنافاً من المشقات ، حتى لكأن الله قد أراد له أن تصهره الشدائد ، وأن يصقله الحرمان حتى يكون إنساناً آخر في إحساسه المرهف وشعوره النبيل ، وعواطفه المتدفقة

وهل تخلو حياة الأدباء من هذا الصراع العنيف بين النور المتدفق الثر ، وبين الجهالة الكابية المتمة ؟ وماذا يريدون منك حين يحولون بينك وبين العمل ، ويحاولون أن يقصروك على منصب « الأستاذ المعاون » إلا أن يصرفوك عن الدعوة النبيلة التي قدحت شررها ، وأثرت نارها ، ونشرتها في كل قلب ؟!...

نحن لم نخلق لهؤلاء البغاث ، وسيذهب أولئك الذين يتخذون منقار النسر وجناحه ومخلبه . وستبقى رسالة دمشق الغالية ، وسنحتمل الأذى ، وسنذوق مرارة الحرمان اليوم ، لنبلغ حلاوة الظفر غداً . وثق أنك لست وحدك في هذا الاضطهاد والحرمان ، ولكنها سبيل مرسوم ، وسهم مسموم ، يقذفون به عباد الله الذين لا يستطيعون هز الرؤوس المهالأة ! وحتى الظهور للنفاق، وإلا فما تقول يا سيدي وماذا يقول الناس عنا نحن هنا ؟ يبعثون بنا إلى القاهرة : أروع بلدان الشرق وأزخرها بالحياة والنشاط لتمثل مدينة من أكرم المدن ، وأمة من أنبل الأمم ، ثم يبخلون أن يسووا بيننا وبين البعثات الأخرى التي يوفدونها إلى باريس وغير باريس ؛ فيقدمون لنا المرتب — والحياء يعقل لساني عن أن أقولها — جزءاً من خمسة أجزاء من مرتب عضو البعثة ... كأن القاهرة بلد آخر غير باريس ... وكأن الطلبة يأكلون هناك ويصومون هنا ... أجل !... ولم لا يصومون ؟... في جوار الأزهر ، وعلى مقربة من سيدنا الحسين ليتضاعف ثوابهم ، ويجزل أجرهم ؟ ..

* * *

وأحسب أن الحرمان سيمتد بك وبإخوانك ؛ فما يؤذي هؤلاء في الدنيا أكثر من الصراحة والحق ... ولكنك لن تني عن « رسالتك » ، ولن تتخلى عنها ... وإذا لم تجد في جماعات الوزارة ، ورجالات الديوان ، من يمتّ إليك بسبب ، أو ينهض معك في حق ... فتلك إرادة الله أن تكون صفحتك في كتاب الحياة بريئة ، إلا من نصرته وتأييده ... لقد اقتحمت الحياة ، وصارعت أمواجها طفلاً ليس معك إلا والدتك عليها رحمة الله ... ولقد حملت إخوتك على كتفيك في هذا الخضم الهائل ، وتمرضت لألوان من الشدة ومن النكد ، حتى صعدت بهم إلى هذه المنازل

السامية التي ينزلونها ... وأصبت بين هاتين المرحلتين ما لا يعلمه إلا الله ... وإلا هذا العدد اليسير من إخوانك ، وتقلبت بين بيروت وبغداد والقاهرة ... وحفظ لك الناس صورة بارعة تحوطها هالات الإعجاب والإكبار والتقدير ، فليهنك هذا ... وليهنك أنك ساهمت في كل مشروع ، وأنك تقدمت لكل عمل منذ كنت يافعاً في الثانوية ، وشاباً في الحقوق ، وقائداً وخطيباً في لهب الثورة وجحيم الاضطرابات ... فتاريخك — مع هذه الحفنة الصادقة من الشباب — أبعد من أن تحده بهذه الحدود الضيقة من الوزارة والديوان ، وما عليك أن تلقى اليوم هذا الضيق ، وهذا التجاهل ... فذلك تأريث لعزتك ، وإيقاد لشعلتك

* * *

أما الشهادات ... هذه الأوراق السحرية التي يحملونها حين يترجمون نصاً لابن المقفع ، أو يميزون بين مضارع « قال » ، ومضارع « وعد » ... ويعودون بعدها من أهل العربية ... فهي ليست أكثر من أن تكون بمثابة (الشيك) على (خزانة الحكومة) ... ولكنها لن تكون قط السبيل إلى قلوب الناس وضمير الزمن وسجل الخلود ...

* * *

لن تظلمك دمشق هذه المدينة الصابرة الوفية ... ولن تجزيك عن البر بالنكر ، وعن الإحسان بالإساءة ، فلقد خلدت منها كل صور الجمال ، ومواطن الجلال ، ومجال العظمة ... ولقد نشرت على الناس صورتها الرائعة في مآذنها المتألقة ، وقبابها الناهضة ، ومساجدها المترعة بالنور والفيض ، وبساتينها اللألى بالحسن والجمال ... وغوطتها الضاحكة على رغم هذا الزمن العابس ... وإن ما تلقاه الآن من أوضاع ، وتجده من أذى ، لا يتصل بدمشق ولكنه محمول عليها ... فدمشق مخلصة نبيلة ... آوت من قبل ألوان البشر ، وآلاف العلماء ، وفتحت صدرها للناس من كل مكان ، تلقاهم بالتحية الضاحكة ، وترعاهم بالود الخالص ، وتنزلهم منها منزلة الولد والصاحب والرئيس ! ... ولن تنسى أبناءها لأنهم كل ما أبقت لها يد الزمان الغادر ... إن قلبها ليرعاهم ويحوطهم ، ويهتز لهم هزة الحب. ولئن عميت طائفة عن هؤلاء الأبناء ، وعن هذا النور الذي ينسكب من وجوههم وقلوبهم ؛ فإن طوائف وطوائف أخرى تتطلع إليهم بأعناقها ... وإنها لتنظم لهم من حبات القلوب ، وأزهار الربيع ، وأغصان الغار ، تاج الحب ... وإنها لتوقع لهم مع نسمات الأصائل التي تزخر بالعبق نشيد الإعجاب. وإن أصوات المآذن التي تنادي: الله أكبر ، الله أكبر ، خمس مرات في اليوم ، إنما تنبعث من أعماق قلب هذه المدينة لتهيب بهؤلاء الأبناء أن يمضوا قدماً في دعوتهم وجهادهم لخلاصها من مفاتن الباطل والضلالات

* * *

لقد هدأ الليل ، وسكن الناس ... وأخذت أستشعر لهذه النسمات بعض القسوة ... وليس من حولي إلا حديث القمر ، وهمسات النجوم ... أحملها كل حنيني لك ، وللاخوان السامرين ، وللجادة الخامسة ... وللغوطة الزهراء

... وألف تحية وسلام يا دمشق الحبيبة الوفية

(القاهرة) شكري فيصل

وزارة المعارف العمومية

اعلان

المدرسة العلوية الدينية ببرليس ببلاد الملايو في حاجة إلى ناظر لها من خريجي دار العلوم يتعاقد معها لمدة ثلاث سنوات بمرتب قدره عشرون جنيهاً مصرياً في الشهر عدا السكن ومصاريف السفر .

فمن يرغب في هذه الوظيفة من خريجي دار العلوم ممن زاولوا مهنة التدريس في المدارس « أميرية أو حرة » مدة لا تقل عن ثلاث سنوات — فليقدم طلبه لادارة المستخدمين بوزارة المعارف على الاستمارة رقم ١٦٧ ع . ح في ميعاد لا يتجاوز يوم ٢٣ مايو سنة ١٩٤٠ .

٦٧٨٤